إنّـــا كـــذَلِـــكَ يـــا سُـــهَـــيَّ إذا
غَـدرَ الـحَـلـيـفُ نَـقُـودُ بـالـخَـطْـمِ[١]
وَبـــكُـــلّ مُـــرْهَـــفَـــةٍ لـــهَـــا نَـــفَـــذٌ
بَـيـنَ الـضّـلُـوعِ كَـطـرّةِ الـفَـدَمِ[٢]

حماة الروع

كانت بين عنترة وبين زياد ملاحاة. فقال يذكر أيامه التي كانت له في حرب داحس والغبراء، ويذكر يوماً انهزمت فيه بنو عبس فثبت بين الناس، فمنع الناس حتى تراجعوا، وكانت عبس أرادت النزول ببني سليم في حرَّتهم. فبلغ ذلك حذيفة بن بدر الفزاري. فتبع بني عبس فهزمهم واستنقذ ما كان في أيديهم. فلم يزل عنترة دون النساء واقفاً حتى رجعت خيل بني عبس، وانصرف حذيفة وانتهى إلى ماء يقال لها الهباءة، فنزل يغتسل هو وأخ له يقال له حمل بن بدر، فأصابوا حذيفة وأخاه في الماء يغتسلان فقتلوهما. فقال عنترة في ذلك:

[الوافر]
نَـــأتْـــكَ رَقَـــاشِ إلا عَـــنْ لِـــمَـــام،
وَأمْـسَـى حَـبْـلُـهَـا خَـلَـقَ الـرِّمَـامِ[٣]

(١) الخطم: الأنف. نحن كذلك لا نرحم حليفاً، نُذلّ حليف عدوّنا فنكسر أنوف القوم راغمين.

(٢) ورد البيت في: لسان العرب ١٢: ٤٧٢ مادة (قدم) «شمر عن ابن الأعرابي: القدْم، بالقاف، ضرب من الثياب حُمْر، قال: وأقرأني بيت عنترة:
. . . . . لها نَفَثٌ تحت الضُّلوع، كطُرّة القَدْم
لا يرويه إلّا القَدْم، قال: والفَدْم، بالفاء، هذا على ما جاء وذاك وذاك على ما جاء». المرهفة: السيف الرقيق البتّار. الطُّرّة: الوشي والزخرفة. أعمل بنو عبس السيوف في أعدائهم فسالت دماؤهم، فاختلطت بضلوعهم وأثوابهم فبدت كوشي اختلط بحمرة.

(٣) نأتك: بعُدت. رقاش: اسم امرأة، بكسر الشين، في موضع الرفع =

وَمَـــا ذِكْـــرَى رَقَـــاشٍ إذا اسْـــتَـــقَـــرّتْ
لَـدَى الـطّـرْفـاءِ عِـنْـدَ ابـنَـيْ شـمَـامِ[١]
وَمَـسْـكِـنُ أهْـلـهـا مِـنْ بَـطْـنِ جَـزْعٍ
تَـبـيـضُ بـهِ مَـصَـايـيـفُ الـحَـمَـامِ[٢]
وَقَـفْـتُ وَصُـحْـبَـتـي بـأُرَيْـنـبَـاتٍ
عَـلـى أقْـتَـادِ عُـوجٍ كَـالـسَّـمَـامِ[٣]
فَـقُـلْـتُ تَـبَـيّـنُـوا ظُـعُـنـاً أرَاهَـا،
تَـحـلّ شُـوَاحِـطـاً جُـنْـحَ الـظّـلامِ[٤]

= والخفض والنصب. اللمام: اللِّقاء النادر. حبلها: وصلها. الرمام، واحدتها رِمّة، بكسر الراء: الحبل البالي. يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع وجدانيّ، ذلك أن رقاش قد رحلت وأوغلت في السير، وقد يكون لقاء، ولكنّ ذلك نادر والسبب أن وصلها رمّ حتى بلي حتى كاد أن يكون مستحيلاً.

(١) الطّرفاء: ضرب من الشجر. شمام: جبل. لقد رحلت رقاش، ونيّتها الاستقرار هناك في البعيد حيث يُستظلّ بشجر الطرفاء عند ابني شمام.

(٢) الجَزْع: منعطف الوادي. المصاييف، مفردها مصياف: المنتجة صيفاً. حيث ينزل قوم رقاش عند منحنى الوادي، في ذلك المكان أفراخ حمائم نُتِجت في الصيف.

(٣) أرينبات: اسم مكان. الأقتاد، واحدها قتد: خشب الرحل. العوج، واحدتها عوجاء: نياق ذوات أرجل عوجاء بسبب ضمورها. السمام: ضرب من الطيور أصغر من القطاة، تشبه به الناقة السريعة. وقف الشاعر مع أصحابه بأرينبات متأملاً مفكّراً متسائلاً ما الذي حصل لذلك المكان، وهم يمتطون نياقاً سريعة المسير، ضامرةً.

(٤) شواحط: جبل مشهور قرب المدينة. جنح الظلام: هزيع من الليل. يودّ الشاعر معرفة ما يرى ويتأكّد من حسن نظره فيسأل صحبه، قائلاً: أتَروْن ما =

لَـقَـدْ مَـنّـتْـكَ نَـفْـسُـكَ يَـوْمَ قَـوٍّ
أَحَـاديـثَ الـفُـؤادِ الـمُـسْـتَـهَـامِ[١]
وَقَـدْ كَـذّبَـتْـكَ نَـفـسُـك فـاكـذبَـنْـهـا
لِـمَـا مَـنّـتْـكَ، تَـغْـرِيـراً، قَـطَـامِ[٢]
وَمُـرْقِـصَـةٍ رَدَدْتُ الـخَـيْـلَ عَـنْـهَـا،
وَقَـدْ هَـمَـتْ بـإلْـقَـاءِ الـزّمَـامِ[٣]
فـقـلـتُ لـهـا: اقـصِـري مِـنْـهُ وَسـيـرِي،
وَقَـدْ عَـلِـقَ الـرّجـائِـزُ بـالـخِـدَامِ[٤]
وَخَـيْـلٍ تَـحْـمـلُ الأبْـطَـالَ شُـعْـثـاً،
غَـدَاةَ الـرّوْعِ أمْـثَـالَ الـسِّـهَـامِ[٥]

= أرى ثَمّة ركب يتوجّه إلى شُوَاحط، وقد أقبل الليل، ومضى منه الهزيع الأول.

(١) منّتك: وعدتك وعداً لا يمكن تحقيقه. قوّ: اسم مكان. الأماني والأحلام قد تبقى في عالم مخيلة البشر، هناك في ذلك المكان يوم قوّ هفت نفس الشاعر إلى حبّ يملأ قلبه المشوق إلى من يحبّ ولكن الأماني والأحلام شيء والواقع شيء آخر.

(٢) تغريراً: خداعاً. قطام: اسم امرأة مبني على الكسر. لقد كانت تلك الأماني خادعة تسرّبت أشعتها في فضاء الحياة، فتبيّن زيفها، ذلك أن قطام اعتادت على الكذب والكاذب لا يصدق، وقد تكون هناك دواعٍ لذلك، وقد لا تكون فالكذّاب لا يصدق.

(٣)، (٤) ومن طبيعة الشاعر الرحمة واحترام النسوة، فربّ ظاعنة حاولت الفرار من الجند الطامعين بأسرها واستعبادها، وقد شارفت على الاستسلام لمصيرها البئيس. فإذا بالشاعر يحول دون ذلك بتدخله، والطلب إليها أن تطمئنّ ويهدأ بالها، وتُمسك بزمام ناقتها وتسير إلى جانب نساء في الرجائز أي مراكبهن، وما يدلّ على ترفهنّ أنهنّ يتّخذن في أرجلهن الخلاخل.

(٥) وربّ خيل تحمل أبطالاً من بني عبس لم يسرّحوا شعورهم لانشغالهم في =

عَـنـاجـيـجٍ تَـخُـبّ عَـلـى رَحَـاهَـا،
تُـثـيـرُ الـنّـقْـعَ بـالـمَـوْتِ الـزّؤامِ[١]
إلـى خَـيْـلٍ مُـسَـوَّمَـةٍ، عَـلَـيْـهَـا
حُـمَـاةُ الـرّوْعِ فـي رَهَـجِ الـقَـتَـامِ[٢]
عَـلَـيْـهَـا كُـلّ جَـبّـارٍ عَـنـيـدٍ،
إلـى شُـرْبِ الـدّمَـاءِ تَـرَاهُ ظَـامـي[٣]
بـأيْـدِيـهِـمْ مُـهَـنّـدَةٌ وَسُـمْـرٌ،
كَـأنّ ظُـبَـاتِـهَـا شُـعَـلُ الـضّـرَامِ[٤]

= حروب أعدائهم، وقد غدَوْا إلى المعركة سِراعاً، ممّا ساعد على ذلك ضمورهم وخفّة حركتهم.

(١) عناجيج، المفرد عنجوج: النجيب من الإبل. تَخُبّ: تسير سريعة مشي الخبب. رحاها: طاحون الحرب التي لا تبقي ولا تذر. النقع: الغبار الموت الزؤام؛ الموت الزعاف السريع. يمتطي المقاتلون نياقاً سريعة الخطى إلى ميادين القتال حيث تثور الغبار، فتختلط الغبار. بأصوات القتلى التي تتهاوى أرضاً وتطحنها رحى الحرب التي تحمل الموت الزؤام بلا رحمة.

(٢)، (٣) رهج: غبار، والسحاب الرقيق كأنه غبار. القتام: الغبار. يصف الشاعر طلائع الأعداء، أنهم فرسان يمتطون خيلاً مسوّمة، من طبيعتهم حماية قوم في المعمعة حيث تسدّ الغبار أفق الميدان. إنهم جبابرة أقوياء مصمّمون على شرب دماء من يقابلهم لا يهابون الموت بل يسقونه إلى أعدائهم.

(٤) مهندة: سيوف هندية. السمر: القنا، ظباتها: رؤوسها. شُعَل الضرام: ملتهبة. إنهم يحملون سيوفاً هنديّة وقنا ذوات رؤوس لاهبة تحمل الموت إلى من يكون ضحيّتها.

فَـجَـاؤوا عَـارِضـاً بَـرْداً، وَجِـئْـنَـا
حَـرِيـقـاً فـي غَـرِيـفٍ ذي ضِـرَامِ[١]
وأُسْـكِـتَ كـلّ صَـوْتٍ غـيـرِ ضَـرْبٍ،
وَعَـتْـرَسَـةٍ وَمَـرْمـيٍّ وَرَامـي[٢]
وَزَعْـتُ رَعـيـلَـهَـا بـالـرّمْـحِ، شَـذْراً،
عـلـى رَبِـذٍ كَـسِـرْحَـانِ الـظّـلامِ[٣]
أكُـرُّ عَـلَـيْـهِـمُ مُـهْـرِي كَـلِـيـمـاً،
قَـلائِـدُهُ سـبَـائِـبُ كَـالـقِـرَامِ[٤]
إذا شَـكّـتْ بـنَـافِـذَةٍ يَـدَاهُ،
تَـعَـرّضَ مـوْقِـفـاً ضَـنْـكَ الـمُـقَـامِ[٥]

(١) العارض: الغيم المفاجئ يحمل مطراً غزيراً. الغريف: ضرب من شجر ملتف. كان هول المفاجأة عارضاً يحمل الموت من خلال غيم مفاجئ فيه مطر مميت، وكان اللقاء عنيفاً بين بني عبس وهؤلاء القوم، فقد كان العبسيون بمثابة محرقة يتهاوى في أتونها المغيرون كأنهم فراش مبثوث.

(٢) العترسة: القوّة العنيفة. اختفت الأصوات إلّا أصوات المتقاتلين الذين يتبادلون الرمي، فمنهم من تصيبه السهام فترديه أرضاً، ومنهم من ينجو منها.

(٣) وزعت: منعت. رعيلها: جمعها. الربذ: الحصان الخفيف القوائم. الأبيات الثمانية الموضوعة بين قوسين لم يروها الأصمعي، وإنما هي مأخوذة من قصة عنترة. وكذلك البيت الأخير من القصيدة لقد ردّ عنترة جمع المغيرين والهزيمة تكلّل رؤوسهم، وهو يصول ويجول على حصان كذئب كاسر خرج ليلاً من مخبئه.

(٤)، (٥) كليماً: جريحاً. سبائب: مفردها سبيبة: الشّقة الرقيقة. القِرام: الستر الرقيق الأحمر. ويهجم الشاعر على المغيرين، وقد أصيب حصانه بجراح، ورغم جراحه فإنه يبدو عليه النشاط والحيوية رغم ما غطته من =

كَـــأنّ دُفُـــوفَ مَـــرْجِـــعِ مِـــرْفَـــقَـــيْـــهِ
تَـــوَارَثَـــهَـــا مَـــنَـــازِيـــعُ الـــسّـــهَـــامِ[١]
تَـــقَـــدَّمَ، وَهْـــوَ مُـــضْـــطَـــمِـــرٌ مُـــضِـــرّ،
بـــقَـــارِحِـــهِ عَـــلـــى فَـــأسِ الـــلّـــجَـــامِ[٢]
يُـــقَـــدّمُـــهُ فَـــتًـــى مِـــنْ خَـــيـــرِ عَـــبْـــسٍ
أبُـــــوهُ، وَأُمّـــــهُ مِـــــنْ آلِ حَـــــامِ[٣]
عَـــجُـــوزٌ مِـــنْ بَـــنِـــي حَـــامِ بـــنِ نُـــوحٍ
كَـــأنّ جَـــبِـــيـــنَـــهَـــا حَـــجَـــرُ الـــمَـــقَـــامِ[٤]

= الدماء التي لوّنت قلائده بلون البطولة الحمراء. ولقد انتقلت الشجاعة إلى الحصان، فهو يخترق الحواجز والموانع في المواقف الصعبة، وشدّة الحرج.

(١) الدفوف، مفردها دفّ: الأجناب. منازيع السهام، مفردها منزع: يقصد أن السهم يُرمى به من قوسه بأقصى قوّة، فحيثما ينزل تقاس به المسافة. يصف الشاعر شدّة عدو حصانه وقوّة اندفاعه وأقصى مدًى تصل إليه النبلة الخارجة من قوسها.

(٢) المضطمر: الضامر: العاض المديم العضّ. فأس اللجام: الحديدة الداخلة في فم الحصان. ولشدّة اندفاع الحصان يعضّ على فأس اللجام بقوّة.

(٣)، (٤) آل حام: يقصد بذلك اسوداد لونه الذي أخذه من أمه. حصان تلك مواصفاته، لا بدّ له من فارس من نوع خاصّ مميّز، تتوفّر فيه مزايا الفتوّة العربية بأبهى صورها، فهو ينتمي إلى عبسيّ من شرفاء قومه، وإلى أمّ منحته اسوداد وقوّة آل حام. إنها عجوز قويّة جُبلت من صخر.